المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الخامس والستين

١ دسمبر (كانون الاول) سنة ١٩٢٤ — الموافق ٤ جماد الاول سنة ١٣٤٣

اناتول فرانس

[نعرف فتاة سورية تحسن الفرنسوية والانكليزية طالعت اكثر ما كتبهُ اناتول فرانس وما قالهُ فيهِ مريدوهُ ومنتقدوهُ مدحاً وذماً فاقترحنا عليها ان تنشىء مقالة عنهُ للمقتطف فكتبتها بالانكليزية وترجمناها بما يلي]

توفي اناتول فرانس فابنة من اعظم نوابغ فرنسا في الانشاء

الذين يحسنون الفرنسوية من غير ابنائها يرون فيهِ مثالاً لابدع ما امتازت بهِ تلك اللغة واسلوبهِ ومن المحتمل انهُ لم يقم منشىء منذ اربعين سنة الى الآن لقي من الاعجاب بهِ والاهتمام بامرهِ اكثر مما لقي اناتول فرانس . وهذا الاعجاب وهذا الاهتمام غير محصورين في فرنسا بل اشترك فيهما سائر البلدان

الكتّاب الذين عظم الخلاف في امرهم الى الدرجة القصوى كما عظم في امرهِ قلائل جدًّا وكذا الذين احبهم الناس والذين ابغضوهم

احترمهُ البعض احتراماً فائقاً حتى كادوا يعبدونهُ لانهم حسبوهُ ابلغ منشىء في اللغة الفرنسوية في العصر الحاضر. قال جول لامتر Jules Lemaître المنتقد الشهير « ان انشاء هذا الرجل عين الكمال في حسن الديباجة وغاية ما وصل اليهِ النبوغ اللاتيني ». لكن من الكتّاب مَن انتقصهُ حاسباً اياهُ مفسداً لاخلاق الشبان وانهُ من اساتذة الفوضى الذين قاموا في فرنسا بعد ربنان وأكثرهم تضليلاً

الاعجاب بانشائهِ عامٌّ لسلاستهِ وانسجامهِ وما فيهِ من الظرف والتنوُّع والدقة الصفات التي تأخذ بمجامع القلوب الاّ ان كثيرين من المنتقدين لا يحسبون عبارتهُ بالغة دائماً ما يجب ان تبلغهُ من الصحة والمتانة

اناتول فرانس او بالاولى (اناتول تبو) لان هذا اسم اسرته الحقيقي — ولد في باريس سنة ١٨٤٤ وابوهُ كتبيٌّ لهُ مشاركة في نظم الشعر وكتابة التاريخ وهو من بوكاج فاندأن وامهُ من بروج في البلجيك . ومن يستطيع ان يحكم يعزى الى والديهِ من تفوقهِ في فنون الادب

الفتى الذي صار منشئاً لبلطشاصّر تلقّى دروسهُ الاولى في مدرسة ستانسلاس فلم تبدُ عليهِ مخايل النجابة حينئذٍ واكبر جائزة نالها كانت الثانية في الانشاء. لكنهُ كان كثير المطالعة مغرماً بقراءة ليثيوس وهوميروس واوريبيدس

ربّتهُ امهُ تربية دينية وذات يوم طرح لعبهُ من كوة غرفتهِ لكي ينقطع عن الدنيا ويصير قديساً لكنهُ لم يلبث ان صار من اهل الشكوك في الامور الدينية ولا بدَّ من انهُ تدرَّج الى ذلك تدرجاً لان حبهُ للطبيعة قام حاجزاً حصيناً بينهُ وبين عيشة التقشّف وجعلهُ عدوًّا للفرائض والقوانين الدينية وادرجهُ في صف ديدرو وفولتر الذين كان يعجب بهما فسهُل على الآراء التي انتشرت في فرنسا في القرن الثامن عشر ان تتملك منهُ . ثم صار من مريدي رينان وتين وبرونتير ولكونت دليل ونسج على منوالهم

شرع باكراً في الانشاء فكتب سلاسل من المقالات للصحف ونشر كتابهُ الاول سنة ١٨٦٨ جاعلاً موضوعهُ الفرد ده ڤيني وهو لا بالبليغ ولا بالسخيف لكن كتابهُ الثاني احلّهُ درجة عليا بين ارباب البيان وهو ديوان شعر نشرهُ سنة ١٨٧٣ وسماهُ الاشعار الذهبية Les Poèmes Dorés واهداهُ الى لكونت دليل وهو مستمدٌّ من انفاسهِ بنوع خاص

ونشر سنة ١٨٧٦ ابلغ ما جادت بهِ قريحتهُ شعراً وسماهُ العرس الكورنثي Noces Corinthiennes وهو من نوع الدراما (الشعر الروائي) ووقف عند هذا الحد من النظم حسب الظاهر . قال جيرو V. Giraud ان اناتول فرانس ترك الشعر لانهُ حسبهُ ناكهة لا تشبع من جوع

ثم كتب مقدمات لبعض الكتب القديمة القيّمة جاءت بديعة رشيقة اللفظ والمعنى

وسنة ١٨٧٩ نشر اول رواية من رواياتهِ واسمها جوكاست Jocaste

وسنة ١٨٨١ ظهر كتابهُ جناية سلفستر بونار. ويقول البعض انهُ ابلغ ما كتب فاحتلّهُ الاكادمية الفرنسوية المحل الاول . وهو قصة بل قصتان تدوران حول

شخص واحد اسمهُ سلفستر بونار فيلسوف من اعضاء اكادمية الثدوين كان عزباً غريب الاطوار شديد الذكاء كثير التهكم يطيل الالقاء في كل المواضيع بكلام رقيق منسجم غاية في الدقة والظرف والذين كأنهُ اناتول فرانس نفسهُ كما ودَّ ان يكون بعد ثلاثين سنة او كما كان قد صار فعلاً

وتلاهُ كتابان ضمنهما ذكريات صباهُ. الاول النحلة Abeille وهو قصة خيالية فتانة والثاني كتاب صديقي Livre de mon Ami وهو من القصص التي تأخذ بمجامع القلوب بجمالها وسلاستها

كان اناتول فرانس من امهر الكتّاب في وصف نفسهِ وما لقيهُ في زمانهِ ولذلك نجد في تلك التذكارات فكاهة فتانة

ولهُ اربعة مجلدات سماها الحياة الانشائية Vie Littéraire جمع فيها اكثر مقالاتهِ الانتقادية التي نشرها في صحيفة الطان . الاّ انهُ كان كثير الغرض شديد التأثر . وهاتان الخلتان لا يصح ان يتصف بهما منتقد يُعتمد على انتقادهِ لاسيما وانهُ كان متطرفاً يسير مع الخيال كيفما سار ويهتم بنفسهِ اكثر مما يهتم بمن ينتقدهُ او بما ينتقدهُ . لكنهُ فاق غيرهُ في وصف الشعراء والمنشئين بعبارة وجيزة محكمة مدحاً او ذمّاً كأنها فصل الخطاب ولذلك ترى في هذا الكتاب كثيراً من الاحكام الصائبة والنكات البديعة كقولهِ في نقدهِ كتاب زولا « الارض » (La Terre) انهُ «روضة الخليع المهتّك » Les Géorgiques de la Crapule . وقال يُعَيِّد ذلك اني لا احرم زولا مجدهُ الحقير لانهُ ما من احد قبلهُ استطاع ان يرقى بالاقذار هذا المرقى فليكن ذلك تذكاراً مجيداً لهُ لا ينازعهُ فيهِ احد . وكقولهِ في فكتور هوغو انهُ عاش في الضوضاء والبراقش فاسكر الناس بها

وكتبهُ بمثابة صدف اللؤلؤ وسور سان كلر — مجلدات ثلاثة فيها قصص قصيرة بعضها تاريخي وبعضها خرافي وبعضها خيالي وهي على درجات من حسن الانشاء بين الغث والسمين لكنها تحوي صفحات فيها من البلاغة ما لو لم ينشىء سواهُ لكفى لتخليد اسمهِ

وسنة ١٨٩٠ نشر كتاب تايس وهو قصة فلسفية عن بداءة الديانة المسيحية حسنة الانشاء جدّاً لكنها كثيرة المغازي والكنايات اراؤها الفلسفية اقرب الى الضعف والغموض منها الى المتانة والجلاء تشرح كيف اعتنقت امرأة اسمها تايس

الديانة المسيحية بارشاد راهب اسمهُ بفنوس وما اصابهُ من البأساء لغير سبب ظاهر سوى ابعادهِ اياها عن ملذات الحياة وحرمانهِ نفسهُ منها . كأن اناتول فرانس لا يرى غير التنديد بمن اهتمامهُ بنفسهِ اكثر من اهتمامهِ بجسدهِ

وكتابهُ مطعم الملكة بدوك Rôtisserie de la Reine Pedauque من ابق كتبهِ ان لم يكن من اكثرها ابتكاراً مدارهُ على كاهن اسمهُ جيروم كوانيارد دكتور في اللاهوت واستاذ في الفنون يتولى عمل كاهن احياناً ويسكر غالباً ويحب الاكل والمجون تراهُ يوماً بيّاعاً ويوماً طوّافاً ويوماً ممثلاً او راهباً وبعد ما تقلبت عليهِ شؤون شتى قتلهُ احد اليهود . وهو بطلاقة لسانهِ وكثرة كناياتهِ واستعاراتهِ من الذين يبالغ اناتول فرانس في تمثيلهم للقارىء

وهذا الكتاب وكتابهُ المسمّى آراء جيروم كوانيارد Opinions de M. Jérome Coignard مشحونان بالآراء الغائلة الضارّة لاسيما وانهُ بسطها بعبارة بليغة وضاءة وكنايات لطيفة خلابة في الآداب والديانة والفلسفة ترمي الى اطلاق العنان للشهوات وتحرير العقول والغرائز من كل قيد ونظام

وكتابهُ المطعم او دكان الطباخ Rôtisserie يمثل لذهن القارىء مدينة باريس كما كانت في القرن الثامن عشر . وقصة الزنبقة الحمراء (Lys Rouge) وقائمها في فلورنسا ومن الاشخاص الداخلين فيها شاعر يمثل فولتر . والرواية سقيمة والاشخاص الذين تدور عليهم خياليون فاسدو السيرة والسريرة اراد ان يثبت بهم ان عصرنا هذا مع كل ما نراهُ فيهِ من التقدم العقلي والادبي والاجتماعي لا يزال الشأن الاكبر فيهِ للماديات فلم نتقدم عن اسلافنا الاقدمين المتوحشين . ولكن انشاء الرواية في الطبقة الاولى من البلاغة وحسن البيان ترتاح النفس الى ما فيها من الوصف لانها تراهُ حقيقيًّا يصل الى اعماقها . ولعلها ابلغ رواية وافكه روايه كتبت باللغة الفرنسوية في هذا العصر

وروايتهُ بستان ابيقورس Jardin d' Epicure جنّة فيها من كل فاكهة زوجان اقاصيص ونكت وآراء وحكم ونروح على كل موضوع ومطلب بعضها مسهب وبعضها موجز وكلها يدلُّ على حالة المؤلف النفسية كصاب بالسوداء مشكك اسيف ولكنهُ لا يعنى بالادلة الدينية كما لا يعنى بالفلسفية

وكتابهُ التاريخ العصري Histoire Contemporaine في اربعة مجلدات

مختلفة الاسماء وأزمان النشر ليس تاريخاً لحوادث العصر بل هو وصف للعادات الشائعة في ولايات فرنسا بقلم رجل باريسي ماهر في الملاحظة والاستهزاء بعضهُ متصل وبعضهُ متقطع وكثير منهُ حسن يسلي القارىء ويصدق على بعض المشاهير في العصر الحاضر

ويلي ذلك سبع روايات نشرت بين سنة ١٩٠٠ و١٩٠٩ وهي متفاوتة حسناً ترمي الى اغراض سياسية وفيها سهام موجهة الى الدين والفلسفة. والثانية منها واسمها Crainquebille تمتاز بحسن انسجامها لكنها تحمل قارئها على الاعتقاد ان ليس في احوال العالم الاجتماعية شيء من العدل او الانصاف وان العاقل من رحّب بالفوضى وقلب ظهر المجن لكل نظام

وسنة ١٨٩٩ نشر Pierre Nozière وهو مجموعة من التذكارات وتلاهُ التاريخ الهزلي Histoire Comique سنة ١٩٠٣ وهو سلّ خفيف الروح كثير الفكاهة ولكنهُ قليل الفائدة

وجزيرة البنغوين ١٩٠٨ L'Ile des Pingouins تاريخ هزلي مسهب لفرنسا لكن هزلهُ اصبح هنا هزءاً مرًّا تنفر منهُ الطباع

وفي كتابهِ « الالهة عطاشى » ١٩١٢ Les Dieux ont Soif فصول مستحبة وفيها كثير من الذكاء وقليل من الآراء الصائبة. وفيهِ ان فرنسا لم تفهم ما في الثورة الفرنسوية من العظمة والشان الكبير كحادثة تاريخية

وحياة جان دارك ١٩٠٨ Vie de Jeanne d'Arc تحط بتلك القديسة من علو عرشها وتجعلها فتاة عادية فعلت ما فعلت مستهواة باحد الرهبان ومدفوعة بحزب سياسي . والكتاب كثير المتناقضات والاغلاط . ثم ان تحزُّب المؤلف على جان دارك اشد من ان يجعلهُ مؤرخاً منصفاً

وثورة الملائكة La Révolte des Anges قصة فلسفية جرى فيها مجرى فولتر وهي خليط من آراء بعض المشاهير مثل ملتن في « الفردوس المفقود » وشاتوبريان في « الشهداء » ولامرتين في « سقوط ملاك » وشيء من رينان وشيء من فولتر وديدرو وآراء بعض علماء اللاهوت . والكتاب في جملتهِ خيال وهزل وتهكم وقد كُتب بلغة ناصعة البيان بديعة الديباجة وهو يهزأ فيهِ بالخالق والمخلوق

والحياة مزهرة La Vie en Fleur آخر ما جاد به قلمهُ وقد عبّر بها عمّا فعلهُ في صباهُ تعبير من يستحسن عملهُ ويسرُّ به وذلك على اسلوب جامع بين الفكاهة والظرف والتسلية يستحسنهُ القارىء فيشارك صاحبهُ في سروره. وقد بالغ في بعض المواضع معتذراً بقوله انهُ ان كان الناس محتاجين الى الحق المحض فهم الى غير الحق احوج لان هذا يتملقهم ويسرهم ويقوي آمالهم واذا فقدوهُ قضى عليهم اليأس وطوّحت بهم السآمة

يظهر من هذا البيان الموجز ما في مؤلفات اناتول فرانس من التباين الكثير خيال وسياسة وفلسفة وشعر وتاريخ وانتقاد وادب ورواية. كل هذه المواضيع طرقها فبرّز فيها وجاء بالغريب المدهش ومع كل ما تفوّق به لم يخترع شيئاً جديداً ولا استطيع ان نقول عن كتاب من كتبهِ انهُ افضل ما كتب في موضوعهِ

اذا قرأنا كتبهُ مبتدئين بالاول منها وجدنا آراءهُ واطوارهُ تغيرت تغيراً عظيماً على توالي السنين فنستغرب كيف ان مصنف « جناية سلفستر بونار » صنف « جزيرة البنغوين ». وكيف ان المتشكك المفكّر المزّاح صار سياسيًّا ينصر حزباً من الاحزاب ويتهالك في نصرتهِ بل فوضويا جسوراً. لكنهُ لم يتغير فعلاً كما هو ظاهر غير أن مصنفاتهِ مختلفة وتكثر فيها المتناقضات ولكن مبادئهُ الاساسية واحدة لم تتغير فانهُ كان يكرهُ كل ما يقال انهُ ديني او فوق الطبيعة. اشار الى ذلك في مصنفاتهِ الاولى اشارات غير واضحة مستعملاً الكناية والتورية والمزاح ثم جعل يفصح عن آرائهِ رويداً رويداً مع تقدمهِ في السن وتقلّب الاحوال واستعداد القراء لقبول ما يقول

قال واحد من كبار الكتاب الفرنسويين « اني اعجب ان كانت عداوتهُ للدين لم تتولد من مزاج فيهِ دقة الى وضع رواية تايس فقد قال منتانيه Montaigne وهو يمدح الشهوة « ليقولوا ما شاؤوا فاننا نرمي الى ارضاء شهواتنا حتى فيما نعدّهُ نضيلة. بهذه الكلمة التي يكرهونها كل الكره اصك آذانهم ». الم يكن ذلك شعار اناتول فرانس فان الشهوة كانت متسلطة عليهِ ومنها تولد كرههُ للاديان بنوع عام ومنها نشأ بغضهُ للزهد ومقاومةِ الاميال لان الزهد خشن المركب يتطلب قمع النفس. ومنها ظهر تعلقهُ بالقرن الثامن عشر الذي أطلق فيهِ العنان للشهوات فكُسرت القيود القديمة التي تقيد الطباع. ومنها نشأ حب التمتع الذي نادى بهِ لان الشهواني

يستطيع ان يتمتع بكل شيء اذا فعل ذلك سرًّا . وهذا سبب ميلهِ الى الفوضى لان قوانين الاجتماع تقف حاجزاً حصيناً في سبيل الشهوات. وسبب ميلهِ الى الاشتراكية لانهُ كان رقيق الطبع يود ان يشترك الناس كلهم في وليمة الحياة . واخيراً نتج من الشهوة ما نراهُ في مؤلفاتهِ من الغيظ والقنوط لانهُ عجز عن نيل مشتهياتهِ مثل كل الايكوريين الكبار ورأى ظل الموت يمازج افراحه كلها . ومنها اعتمادهُ المستمر على الحكم « لانهُ روضة العقل ومسرة الحكمة » ولكنهُ قلما يتغلب على اميال الناس وان اعجبوا بهِ احياناً

لقد نقض اناتول فرانس اسمى ما يتوخاهُ الانسان ويجلّهُ ويقدسهُ ولم يعطِ الناس شيئاً بدلاً منهُ . ورغماً عن المناحي الكثيرة التي ظهر فيها وهي ليست بالقلة من الجمال والاناقة والشرف ما تتمناهُ لها . ورغماً عن الظلال الكثيرة المبسوطة على تلك القريحة الوقادة يبقى اناتول فرانس معشوقاً لكل الذين يحبون الجمال وذلك لان فيها خطهُ قلمهُ سحراً يسبي العقول ولو لم يبث فيها نشاطاً يسري منها الى غيرها . واسلوبهُ العجيب في الانشاء — لان لهُ اسلوباً خاصًّا يتفق مع الاشخاص الذين كتب عنهم والعصور التي كتب عنها — لم يضارعهُ فيهِ احد — فهو خاصٌّ بهِ لكنهُ يتنوع في خفتهِ وسلاستهِ وبلاغتهِ في الوصف وتفوقهِ في الشعور . وذكاؤه وتعمقهُ ومهارتهُ الفنية — لانهُ من كبار رجال الفن ومن ادقهم صناعة قلمية — تدل على انهُ كان واسع الاطلاع كثير التفكير . ومما يزيد مريديهِ حبًّا لهُ وتعلّقاً بهِ رقة الشعور البادية في بعض كتبهِ ولاسيما « كتاب صديقي » Le Livre de mon Ami وكتاب جناية سلفستر بونار الذين قال فيهما جول لامتر انهُ لم يكن يستطيع ان يقرأ الصفحات الاخيرة منهما الاّ ويجد نفسهُ مدفوعاً الى البكاء

وقد يفقد كثير من كتبهِ في الاجيال المقبلة بعض ما لهُ من المزيّة في النفوس ولكن كتاب « جناية سلفستر بونار » يبقى مفتوحاً الى ابعد العصور التالية لما فيهِ من التهكم الجميل والعلم الواسع من غير غرور والرقة البسّامة والغرام بكل ما هو سامٍ وجميل في الانسان وفي الطبيعة

هذا وقد اعطي اناتول فرانس جائزة نوبل للانشاء ولكنهُ لم يعطها الاّ سنة ١٩٢١